

٢٣ - ﴿ مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثأقلم إلى الأرض ﴾!
 آخر غزوات النبي ﷺ غزوة تبوك التي كانت في السنة التاسعة من الهجرة
 في شهر رجب^(١) وقد عاد النبي ﷺ من تبوك في شهر رمضان المبارك^(٢) وتبوك
 بالفتح ثم الضمّ وواو ساكنة وكاف: موضعٌ بين وادي القرى والشام^(٣) إلى
 الشمال من المدينة المنورة. وبين تبوك والمدينة اثنتا عشرة مرحلة^(٤) وكان سببها
 أنّ النبي ﷺ بلغه أنّ هرقل ملك الروم ومن عنده من متنصرة العرب قد عزموا
 على قصده، فتجهّز هو والمسلمون وساروا إلى الروم^(٥) وكان جيش المصطفى
 ﷺ ثلاثين ألفاً^(٦) وكان الوقت صيفاً، شديد الحرارة، يميل الناس فيه إلى البقاء
 حيث الخضرة والظلال، ويكرهون الخروج من أجل تلك الأسباب ، خاصةً وقد
 طابت الثمار وراقت الظلال.

وقد بين النبي ﷺ للناس قصده وعين وجهته، خلافاً لعادة النبي ﷺ
 بشأن كلّ غزواته الأخر حينما يعين غير الوجه الذي إليه يقصد، كي يباغت
 العدو ويأخذه على غرة^(٧).

وبسبب ظروف غزوة تبوك الصعبة أرسل النبي ﷺ رسله إلى الكثير من
 الأصقاع كي ينفروا معه إلى الغزو^(٨) كما حثّ المسلمين على النفقة في سبيل الله

(١) انظر السيرة النبوية ٤٣٧/٢ والكمال في التاريخ ٢٧٤/٢ و٢٧٦ معجم البلدان: "تبوك" والفصول في سيرة
 الرسول ٢١٠.

(٢) الكمال في التاريخ ٢٨٢/٢ والفصول في سيرة الرسول ٢١٢.

(٣) معجم البلدان: "تبوك"

(٤) معجم البلدان: "تبوك"

(٥) الكمال في التاريخ ٢٧٧/٢ وانظر نور اليقين ٢٦٩.

(٦) الفصول في سيرة الرسول ٢١٠.

(٧) انظر السيرة النبوية ٤٣٨/٢ والكمال في التاريخ ٢٧٧/٢ والفصول في سيرة الرسول ٢١٠.

(٨) انظر الفصول في سيرة الرسول ٢١٠ ونور اليقين ٢٦٩.

تعالى^(١) فأنفق عثمان بن عفان ؓ عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها^(٢) وخمسين فرساً، فقال ﷺ: اللهم ارض عن عثمان فإني راضٍ عنه. وجاء أبو بكر ؓ بكلّ ماله، وهو أربعة آلاف درهم. فقال ﷺ: هل أبقيت لأهلك شيئاً؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. وجاء عمر بن الخطاب ؓ بنصف ماله. وجاء عبدالرحمن بن عوف ؓ بمائة أوقية^(٣) وهكذا. وأرسلت النساء بكلّ ما يقدرن عليه من حليهنّ^(٤).

وتخلف منافقون كفراً وعناداً، وكانوا نحو الثمانين رجلاً^(٥) وقد خرج معه عبدالله بن أبي ابن سلول رأس النفاق، ثمّ رجع من أثناء الطريق^(٦) واعتذر بعض المنافقين عن الخروج بسبب شدة الحرّ^(٧) وبعضهم بزعمه أنّه يخشى على نفسه عدم الصبر عن النساء الروميات المعروفات بالجمال^(٨) والسبب الحقيقي هو داء النفاق. وبعضهم ثبّط الآخرين عن الجهاد في سبيل الله تعالى.

على أنّ بعض الذين تخلفوا من أولى الأعذار الحقيقية، وبعضهم تخلف عن غير شكّ ولا ارتياب، حتّى عاد رسول الله ﷺ من تبوك^(٩) وهم الثلاثة الذين تخلفوا وتابوا إلى الله تعالى، فتاب الله تعالى عليهم. وهم كعب بن مالك ؓ أخو بني سلمة من الخرج، ومُرارة بن الربيع ؓ أخو بني عمرو بن عوف من

(١) انظر الكامل في التاريخ ٢/٢٧٧ والسيرة النبوية ٢/٤٣٩ ونور اليقين ٢٧٠.

(٢) أحلاس، جمع حلس بكسر الحاء وسكون اللام: كلّ ما ولي ظهر الدابة تحت الرّحل والقنّب والسرج. والقنّب: الرّحل الصّغير على قدر سنام البعير.

(٣) نور اليقين ٢٦٩.

(٤) نور اليقين ٢٧٠.

(٥) الفصول في سيرة الرسول ٢١١.

(٦) الفصول ٢١١ وانظر السيرة النبوية ٢/٤٤٠.

(٧) انظر السيرة النبوية ٢/٤٣٨.

(٨) انظر السيرة النبوية ٢/٤٣٨.

(٩) انظر السيرة النبوية ٢/٤٤٠.

الأوس، وهلال بن أمية رضي الله عنه، أخو بني واقفٍ من الأوس^(١) وكعب بن مالك عقي^(٢) ومُرارة بن الربيع وهلال بن أمية بدرَيان^(٣).

واستعمل النبي ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري^(٤) وخلف علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقلاً له وتحففاً منه. فلما قال ذلك المنافقون أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف^(٥) فقال: يا نبي الله. زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتحففت مني. فقال: كذبوا. ولكنني خلفتك لما تركت ورائي، فأرجع فاخلفني في أهلي وأهلك. أفلا ترضى يا علي أن تكون مني. بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي. فرجع علي إلى المدينة. ومضى رسول الله ﷺ على سفره^(٦).

وقد لحق بالنبي ﷺ بعض الذين تأخروا في المدينة المنورة أو في الطريق. وقد كان لحاقهم مبعث رضا النبي ﷺ عنهم وسعادته بهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وفي أثناء الذهاب إلى تبوك والعودة منها ظهر علي يد النبي ﷺ الكثير من المعجزات، وبخاصة ماله علاقةً منها بالطعام والشراب: " فبلغ ﷺ تبوك وفيها عين تبض^(٧) بشيء من ماء قليل، فكثرت ببركته. مع ما شوهد من بركة دعائه في هذه الغزوة من تكثير الطعام الذي كان حاصل الجيش جميعه منه

(١) انظر السيرة النبوية ٤٤٠/٢ وفتح الباري ١١٩/٨ و ١٢٠.

(٢) انظر السيرة النبوية ٤١٩ / ١.

(٣) انظر - مثلاً - فتح الباري ١١٤/٨ حديث رقم ٤٤١٨.

(٤) السيرة النبوية ٤٤٠/٢.

(٥) الجرف بالضم ثم السكون : موضع على ثلاثة أميال من المدينة.

(٦) السيرة النبوية ٤٤٠/٢

(٧) تبض : ترشح.

مقدار العنز الباردة. فدعا الله عز وجل فأكلوا منه، وملأوا كل وعاء كان في ذلك الجيش. وكذا لما عطشوا دعا الله تعالى فجاءت سحابة فأمرت فشرّبوا حتى رؤوا واحتملوا، ثم وجدوها لم تجاوز الجيش. ومن آيات أخر كثيرة احتاجوا إليها في ذلك الوقت^(١) ومن ذلك إحياء الله تعالى للنبي ﷺ بموضع ناقته التي ضلت فوجدوها كما أوحى إليه ﷺ في ذلك الوادي في شعب بعينه قد حبستها شجرة بزمامها^(٢) إلى غير ذلك من آيات ومعجزات. ورغم كل هذه المعجزات فإن المنافقين لا يزدادون إلا عمى بصيرة والعياذ بالله.

وصل النبي ﷺ إلى تبوك فلم يلق كيداً فقد فر هرقل بجيشه. وقد عقد النبي ﷺ في تلك الغزوة الكثير من معاهدات الصلح مع الحكام النصارى، وفرض الجزية، كما أنه ﷺ بعث خالد بن الوليد ﷺ إلى ملك دومة الجندل النصراني، وهو أكيدر بن عبد الملك، رجل من كندة كان ملكاً عليها، وكان نصرانياً، فقال رسول الله ﷺ لخالد: إنك ستجده يصيد البقر^(٣) فكان الذي ذكره ﷺ. وهذا من معجزاته عليه الصلاة والسلام. وفي تلك الليلة المقمرة أرسل الله تعالى لذلك الملك البقر الوحشية التي باتت تحك بقرونها باب القصر، فخرج الملك في بعض حاشيته ليصطادها، فاصطاده خالد ﷺ وجيشه، وأسره وقتل أخاً له اسمه حسّان^(٤).

ثم إن خالداً قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ فحقن له دمه^(١) فأسلم أكيدر وصالح النبي ﷺ على أرضه وكتب له ولأهل دومة كتاباً^(٢).

(١) الفصول في سيرة الرسول ٢١١.

(٢) انظر السيرة النبوية ٤٤٣/٢.

(٣) السيرة النبوية ٤٤٦/٢.

(٤) انظر السيرة النبوية ٤٤٦/٢.

(١) السيرة النبوية ٤٤٦/٢.

(٢) انظر معجم البلدان: "دومة الجندل" وثمه صيغة الكتاب الذي كتبه ﷺ لملك دومة الجندل.

وأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضعة عشرة ليلةً ولم يجاوزها، ولم يقدم عليه الروم والعرب المنتصرة^(٣) وقد أفرعهم دنوّه ﷺ منهم^(٤).

ولمّا لم يكن لدى النبي ﷺ وحيٌّ بمواصلة السير والتّوغّل، وحينما استشار ﷺ أولى الرّأي وفي مقدّمهم عمر رضي الله عنه^(٥) فأشاروا بالرجوع وعدم التّوغّل في ديار القوم، فإنه عليه الصّلاة والسّلام عاد إلى المدينة المنورة وكان ذلك في شهر رمضان المبارك^(٦).

وقد أنزل الله تعالى في غزوة تبوك عامّة سورة التّوبة^(٧) المدنيّة الكريمة. وهي من آخر ما نزل عليه ﷺ من قرآن كريم^(٨). وهذا تفسيرٌ موجزٌ للآيات الكريّمات من سورة التّوبة التي نزلت في غزوة تبوك . قال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ

الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨١﴾

يا أيها الذين آمنوا بالله تعالى ربّاً، وبالإسلام ديناً، ومحمّد ﷺ نبياً ورسولاً، وبالقرآن الكريم منهجاً، مالكم، وأي شيء أمركم^(١) وما الذي جرى لكم ودهاكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله تعالى، ولّبوا نداء الجهاد بالخروج

(٣) الكامل في التاريخ ٢/٢٨١.

(٤) نور اليقين ٢٧٣.

(٥) انظر نور اليقين ٢٧٣.

(٦) الفصول في سيرة الرسول ٢١٢.

(٧) الفصول في سيرة الرسول ٢١٢.

(٨) الإتيقان ١/٤٣.

(١) تفسير الطّبري ١٠/٩٣.

من منازلكم إلى مغزاكم^(٢) ثناقتم إلى لزوم أرضكم ومساكنكم والجلوس فيها^(٣) وأصل اثناقتم ثناقتم ، ثم قلبت التاء ثاء للإدغام بعد سكونها وزيادة همزة الوصل لمناسبة السكون^(٤) أرضيتهم بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل عوضاً من نعيم الآخرة^(٥) المقيم وبدلاً من الآخرة^(٦) والهمزة من: ﴿أرضيتهم﴾ همزة استفهام للتوبيخ^(٧) فما متاع الحياة الدنيا من الآخرة وبدل نعيمها^(٨) إلا نزر يسيراً في جنب متاع الآخرة^(٩)

﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا
وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

إن: حرف شرط جازم. لا : نافية . تنفروا: مضارع مجزوم فعل الشرط
وعلامه الجزم حذف النون. والواو فاعل. يعذب: مضارع مجزوم جواب
الشرط^(١).

إلا تنفروا أيها المسلمون لغزو الروم^(٢) يعذبكم الله تعالى عذاباً أليماً،
ويستبدل بكم قوماً غيركم يلبون نداء الجهاد في سبيل الله تعالى ولا تضرّوا الله

^(٢) تفسير الطبري ٩٣/١٠ .

^(٣) تفسير الطبري ٩٤/١٠ .

^(٤) الجدول في إعراب القرآن وصفه ٢٨٩/٥ .

^(٥) تفسير الطبري ٩٤/١٠ .

^(٦) تفسير ابن كثير ٩٤/٤ .

^(٧) الجدول في إعراب القرآن وصفه ٢٨٩/٥ .

^(٨) الجلالين .

^(٩) الجلالين .

^(١) الجدول في إعراب القرآن وصفه ٢٩٠/٥ .

^(٢) انظر تفسير الطبري ٩٤/١٠ .

تعالى، فإنه عز وجل الغني وأنتم أيها الناس الفقراء إلى الله تعالى. والله تعالى على كل شيء قدير فلا يعجزه عز وجل شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ

كَفَرُوا ثَانِيًا أَتَيْنَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ

لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا^ط فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ

بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى^ط

وَكَالِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا^ط وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

أيها المسلمون إلا تنصروا محمداً ﷺ في ساعة العسرة وفي غزوة تبوك فقد نصره الله تعالى في ساعة أشد عسراً، وموقف أشد صعوبةً إذ أخرجه عليه الصلاة والسلام من مكة المكرمة الذين كفروا وهو واحد من الاثنين^(٣) أمّا الثاني فإنه أبو بكر ﷺ، إذ هما في غار جبل ثور إلى الجنوب من مكة المكرمة^(٤) إذ مكثا به ثلاثة أيام^(١) ثم اتجها شمالاً إلى المدينة المنورة، إذ يقول محمد ﷺ لصاحبه أبي بكر ﷺ لا تحزن إن الله معنا بالنصر والتأييد.

عن أنس ﷺ قال : حدثني أبو بكر ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرأيت آثار المشركين، قلت يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رأنا، قال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما^(٢) فأنزل الله تعالى سكينته وطمأنينته عليه ﷺ، وأيده وأعانه بجنود من الملائكة لم تروها. وجعل الله تعالى كلمة الذين كفروا وهي

(٣) انظر تفسير الطبري ٩٥/١٠.

(٤) انظر تفسير الطبري ٩٥/١٠ وتفسير ابن كثير ٩٥/٤.

(١) تفسير ابن كثير ٩٥/٤.

(٢) فتح الباري ٣٢٥/٨ حديث رقم ٤٦٦٣.

الشَّرِكُ^(٣) السُّفْلَى، وكلمة الله تعالى وهي لا إله إلا الله^(٤) هي الكلمة العليا. والله تعالى عزيزٌ في ملكه، حكيمٌ في صنعه.

﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

هُبُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى خِفَافًا وَثِقَالًا، شَبَابًا وَشِيبًا، صِغَارًا وَكِبَارًا، أَغْنِيَاءَ وَفُقَرَاءَ. فِي حَالِ الْيَسْرِ وَفِي حَالِ الْعُسْرِ وَفِي كُلِّ الْأَحْوَالِ. جَاهِدُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ. ذَلِكَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَائِدَةُ الْجِهَادِ الْعَظِيمَةِ، وَعَاقِبَتُهُ الْحَمِيدَةُ.

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن

بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا

مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

لَوْ كَانَ الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ أَوْلَئِكَ الْقَاعِدِينَ عَرَضًا قَرِيبًا، وَغَنِيمَةً قَرِيبَةً^(١) وَسَفَرًا قَاصِدًا، وَمَوْضِعًا قَرِيبًا سَهْلًا^(٢) لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ، وَنَاتِ الْمَسَافَةَ إِلَى الشَّامِ^(٣) وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ^(٤) لَوِ اسْتَطَعْنَا الْخُرُوجَ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ إِلَى تَبُوكَ. يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيُورِدُونَهَا مَوَارِدَ

(٣) تفسير ابن كثير ٩٦/٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٩٦/٤.

(١) تفسير ابن كثير ٩٩/٤.

(٢) تفسر الطبري ٩٩/١٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٩٩/٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٩٩/٤.

العطب، ويورثونها سخط الله، ويكسبونها أليم عقابه^(٥) والله تعالى يعلم إثم
لكاذبون في أعدارهم وفي كل أقوالهم.

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ

الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ ﴾ ﴿٤٣﴾

عفا الله عنك يا محمد ويا أيها الرسول الكريم والتبّي العظيم لم أذنت
للمنافقين بالعودة وسمحت لهم بالبقاء في المدينة المنورة وهم الذين قال بعضهم
لبعض: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاعدوا وإن لم يأذن لكم
فاعدوا^(٦) إنك يا محمد لو لم تأذن لهم بالعودة لتبين لك الذين صدقوا في العذر
وتعلم الكاذبين فيه^(١) وإنك بإعطائهم الإذن في القعود قد اختلطوا بدوي
الأعداء الصادقة.

﴿ لَا يَسْتَعِدُّنَا الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ

﴿ إِنَّمَا يَسْتَعِدُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ * وَلَوْ أَرَادُوا

الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ

وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٥﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ

إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ

^(٥) تفسير الطبري ٩٩/١٠.

^(٦) تفسير الطبري ١٠٠/١٠.

^(١) الجلالين .

سَمِعُونَ هُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ

قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ

كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾

لا يستأذنك أيها الرسول الكريم والنبى العظيم عن الخروج معك للجهاد في سبيل الله تعالى الذين يؤمنون بالله تعالى رباً وباليوم الآخر الجزاء في التخلف عن (٢) أن يجاهدوا بأمواتهم وأنفسهم. والله تعالى عليم بالمتقين الذين لا يتخلفون عن الجهاد في سبيله عز وجل.

إنما يستأذنك يا محمد في القعود عن الجهاد الذين لا يؤمنون بوحدانية الله تعالى ولا باليوم الآخر وشكّت (١) قلوبهم وارتابت فهم في شكهم متحيرين، وفي ظلمة الحيرة مترددون، لا يعرفون حقاً من باطل (٢).

ولو أراد أولئك المنافقون الخروج معك يا محمد للجهاد لأعدوا له عدّة، ولكن كره الله تعالى انبعاثهم وخروجهم (٣) فثبّطهم، وثقل عليهم الخروج (٤) وصعبه عليهم فقعدوا وقيل لهم اقعّدوا مع القاعدين من أولى الأعدار وغير أولى الأعدار من المنافقين أمثالكم.

لو خرج أولئك المنافقون معكم واندسوا فيكم مازادوكم إلا خيلاً وفساداً وضراً (٥) ولأوضعوا خلالكم، ولأسرعوا بالفساد بينكم، وتثبيط عزائمكم،

(٢) الجلالين.

(١) الجلالين .

(٢) تفسير الطبري ١٠/١٠١.

(٣) تفسير الطبري ١٠/١٠١.

(٤) تفسير الطبري ١٠/١٠١.

(٥) تفسير الطبري ١٠/١٠١.

وتفتير هممكم، ييغونكم الفتنة، وبثّ الفرقة بإلقاء العداوة^(٦) بينكم. وفيكم أيّها المؤمنون سمّاعون لهم، آخذون ما يقولونه مأخذ النّصيحة وهو عين الغشّ. والله تعالى عليمٌ بالظّالمين، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ من أفعالهم وأقوالهم ونواياهم.

لقد ابتغوا الفتنة يا محمّد من قبل وذلك على غرار انسحاب عبدالله بن أبيّ ابن سلول شيخ المنافقين بجيشه قبل معركة أحد، وها هو ذا يكرّر في تبوك الفعلة الشّنيعة ذاتها^(٧) وقلّبوا لك يا محمّد الأمور، وأجالوا فيك وفي إبطال الدّي بعثك به الله الرّأي بالتّخذيّل عنك وإنكار ما تأتيهم به، وردّه عليك^(٨) حتى جاء الحقّ ونصر الله^(٩) وظهر أمر الله ودينه الذي أمر به وافترضه على خلقه وهو الإسلام^(١٠) وهم كارهون، والمنافقون مبغضون لكلّ خيرٍ للإسلام وأهله.

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أُنْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۗ أَلَا فِي

الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۗ ﴾

جاء في سبب نزول الآية الكريمة^(٤) أنّ رسول الله ﷺ حينما كان يستعدّ لغزو الروم قال في أحد الأيام للجدّ بن قيس أحد بني سلّمّة: يا جدّ، هل لك العام في جِلاّد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنّه مامن رجلٍ بأشدّ عجباً بالنساء مني. وإني أخشى إن رأيت نساء

(٦) الجلالين.

(٧) انظر تفسير الطّبري ١٠١/١٠ و١٠٢/١٠ و١٠٤ و تفسير ابن كثير ١٠٠/٤ والسيرة النبوية ٢/٥٧ و٤٠/٤٤٠.

(٨) تفسير الطّبري ١٠٣/١٠.

(٩) تفسير الطّبري ١٠٣/١٠.

(١٠) تفسير الطّبري ١٠٣/١٠.

(٤) انظر السيرة النبوية ٤٣٨/٢ وأسباب النزول للواحدى التيسابوري ٢٨٤ وتفسير الطّبري ١٠٤/١٠ وتفسير

ابن كثير ١٠١/٤.

بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنتُ لك. ففي الجَدِّ بن قيس نزلت هذه الآية الكريمة.

والمعنى، والله تعالى أعلم: ومن هؤلاء المنافقين من يقول للرسول ﷺ وقد دعاه إلى غزو الروم ويعتذر بالقول: ائذن لي بالبقاء ولا تفتني بالنساء الروميات الجميلات لو خرجت للغزو. ألا في الفتنة الحقيقية سقطوا، وهي التخلف عن الجهاد في سبيل الله تعالى ومخالفة أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ. وإن جهنم لمحيطة نيرانها المتأججة الفظيعة يوم القيامة بالكافرين بمختلف فئاتهم وفي مقدمتهم المنافقون.

﴿ إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ ۖ

يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥١﴾

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا

إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ

بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ ۖ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ

مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٣﴾

إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمِ وَالنَّبِيِّ الْعَظِيمِ مِنْ فَتْحِ أُونُصْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَسُوءُهُمْ ذَلِكَ. وَإِنْ تُصِيبْكَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى مُصِيبَةٌ وَلَا تَخْطُئَكَ مِنْ هَزِيمَةٍ - لَا سَمَحَ اللَّهُ - أَوْ قَتَلَ أَوْ جَرَحَ فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُونَ قَدْ أَخَذْنَا

حذرنا^(١) من قبل أن تصيبه هذه المصيبة^(٢) ويرتدوا عن محمد وهم فرحون بما أصاب محمداً وأصحابه من المصيبة^(٣).

فقل يا محمد لن يصيبنا إلا ما كتب الله تعالى لنا في اللوح المحفوظ وقضاه علينا^(٤) هو عز وجل مولانا وناصرنا على أعدائه^(٥) وسيدنا وملجؤنا^(٦) وعلى الله تعالى فليتوكل المؤمنون.

قل يا محمد هل تنتظرون بنا^(١) في جهادنا في سبيل الله تعالى إلا إحدى الحسينين النصر أو الشهادة، وإلا إحدى الخلتين اللتين هما أحسن من غيرهما، إما ظفراً بالعدو وفتحاً لنا بغلبتناهم ففيها الأجر والغنيمة والسلامة. وإما قتلاً من عدونا لنا ففيه الشهادة والفوز بالجنة والتجاة من النار، وكلتاها مما يحب ولا يُكره^(٢) ونحن نتظر بكم أن يصيبكم الله تعالى بعذابٍ من عنده عز وجل أو بأيدينا. فانتظروا إننا معكم منتظرون.

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ^ط

إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥١﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ

نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ

إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴿٥٢﴾ ﴿

(١) تفسير الطبري ١٠/١٠٥.

(٢) تفسير الطبري ١٠/١٠٥.

(٣) تفسير الطبري ١٠/١٠٥.

(٤) تفسير الطبري ١٠/١٠٥.

(٥) تفسير الطبري ١٠/١٠٥.

(٦) تفسير ابن كثير ٤/١٠٢.

(١) تفسير الطبري ١٠/١٠٥.

(٢) تفسير الطبري ١٠/١٠٥.

قل يا محمد لأولئك المنافقين الذين ينفقون أموالهم من باب الرياء ويقصد حسن الذكر أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل الله تعالى منكم، لأنكم ما أردتم بالنفقة وجه الله تعالى. إنكم كنتم قوماً فاسقين خارجين عن الصراط المستقيم. وما منع أولئك المنافقين أن تُقبلَ منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله تعالى، وبرسوله ﷺ، ولا يأتون الصلاة ولا يؤدونها إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون، فليست نفقتهم عن طيب نفسٍ ورضا خاطر.

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ

كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾

فلا تعجبك أيها الرسول الكريم والنبي العظيم وأيها المؤمن أموالهم ولا أولادهم. إنما يريد الله تعالى ليُعذبهم بها في الحياة الدنيا بما يلقون في جمعها من المشقة، وفيها من المصائب^(١) وترهق أنفسهم وتخرج^(٢) أرواحهم وهم كافرون فيذهبون إلى نار الجحيم.

﴿ وَتَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ

وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ سِجِّدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ

مُدْخَلًا لَّوَلَوْ أِِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

ويحلف المنافقون بالله تعالى العظيم بأنهم منكم أيها المؤمنون وعلى دينكم، وما هم منكم ولا على دينكم، ولكنهم قومٌ يخافونكم، فهم خوفاً منكم

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطبري ١٠/١٠٧.

يقولون بألسنتهم إنا فيكم ليأمنوا فيكم فلا يُقْتَلُوا^(٣) لو أنهم يجدون حصناً يتحصنون به^(٤) أو مغاراتٍ في الجبال، أو نفقاً في الأرض^(٥) لذهبوا إلى ذلك كله هرباً منكم وهم يجمحون كالفرس الجموح^(٦).

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا

وَإِنْ لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا

مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ

فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في أمر الصدقات ويطعن عليك فيها^(١) فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يُعْطُوا منها إذا هم يسخطون عليك ويعيونك ويغضبون لأنفسهم^(٢) ولو أنهم رضوا ما أعطاهم الله تعالى من خزائنه التي لا تنفذ، وأعطاهم رسوله ﷺ من الصدقات ونحوها، ولو أنهم قالوا كافينا الله^(٣) سيؤتينا الله تعالى من فضله وسيؤتينا رسوله ﷺ، إنا إلى الله تعالى راغبون في أن يوسع علينا من فضله فيغنيننا عن الصدقة وغيرها من صلوات الناس والحاجة إليهم^(٤) لكان كل ذلك خيراً لهم وأفضل.

(٣) تفسير الطبري ١٠/١٠٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/١٠٣.

(٥) تفسير ابن كثير ٤/١٠٤.

(٦) الجلالين.

(١) تفسير الطبري ١٠/١٠٨.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٠/١٠٨ و١٠٩ و١٠٤/٤ وتفسير ابن كثير ٤/١٠٤.

(٣) تفسير الطبري ١٠/١٠٩.

(٤) تفسير الطبري ١٠/١٠٩.

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمَلِينَ

عَلَيْهَا وَالْمَوْلَةَ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ

اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

إنَّما الصَّدقات قد فرضها الله تعالى لهذه الفئات الثمان. إنَّها للفقراء. والفقير هو المتعفف الذي لا يسأل النَّاس شيئاً^(١) والذي به عاهة^(٢) وزمانة^(٣) وللمساكين. والمساكين: هو الذي يسأل ويطوف يتبع النَّاس^(٤) والصَّحيح الجسم^(٥) والعاملين عليها والسَّعة في قبضها من أهلها ووضعها في مستحقَّيها يعطون ذلك بالسَّعاية، أغنياء كانوا أو فقراء^(٦) والمؤلَّفة قلوبهم كي يدخلوا في الإسلام، أو يثبتوا عليه، أو ينفعوه ويدفعوا الأذى عنه^(٧) وفي الرِّقاب وهم المكاتبون يُعطون منها في فك رقابهم^(٨) والغارمين وهم الذين استدانوا في غير معصية الله ثم لم يجدوا قضاءً في عينٍ ولا عرض^(٩) وفي سبيل الله، وهم الغزاة

(١) انظر تفسير الطَّبري ١١٠/١٠ وتفسير ابن كثير ١٠٦/٤.

(٢) انظر تفسير الطَّبري ١١٠/١٠.

(٣) الزَّمانة بفتح الزَّاي : العاهة.

(٤) انظر تفسير الطَّبري ١١٠/١٠ و١٠٩/١١٠ وتفسير ابن كثير ١٠٦/٤.

(٥) انظر تفسير الطَّبري ١١٠/١٠ و١٠٩/١١٠.

(٦) تفسير الطَّبري ١١١/١٠.

(٧) انظر تفسير الطَّبري ١١٢/١٠ و١١٣ و١٠٧/٤ و١٠٨.

(٨) تفسير الطَّبري ١١٣/١٠ وتفسير ابن كثير ١٠٨/٤.

(٩) تفسير الطَّبري ١١٤/١٠.

المجاهدون في سبيل الله تعالى^(١٠) وابن السبيل وهو المسافر الذي يجتاز من بلدٍ إلى بلد. والسبيل: الطريق^(١١) وليس مع المسافر شيءٌ يستعين به في سفره^(١٢).
فريضةً من الله تعالى وقِسْماً قسّمه الله لهم فأوجبه في أموال أهل الأموال لهم^(١٣).

والله تعالى عليمٌ بمصلحة عباده، حكيمٌ في تدبيره خلقه^(١).
ويلاحظ في ترتيب هذه الفئات الثمان أنه روعي في ذلك شدة الحاجة والكثرة.

﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ

أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ

ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

ومن هؤلاء المنافقين أولئك الذين يؤذون النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ويقولون هو أذن سامعة يسمع من كلِّ أحدٍ ما يقول فيقبله ويصدق^(٢) قل أيها المؤمنون هو أذن خيرٍ لكم يفرح للخير حلّ بكم ويتمناه لكم لا أذن شرّ. يؤمن بالله تعالى ويؤمن للمؤمنين يطمئنّ لهم ويبتهج^(٣) ويرتاح،

(١٠) انظر تفسير الطبري ١١٤/١٠ وتفسير ابن كثير ١٠٩/٤.

(١١) تفسير الطبري ١١٥/١٠.

(١٢) تفسير ابن كثير ١٠٩/٤.

(١٣) تفسير الطبري ١١٥/١٠.

(١) تفسير الطبري ١١٥/١٠.

(٢) تفسير الطبري ١١٦/١٠.

(٣) انظر التفسير البسيط ٢١٩/١٠ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١٩/٥.

ورحمة للذين آمنوا منكم أيها الناس. والذين يؤذون رسول الله ﷺ بأقوالهم وأفعالهم لهم عذابٌ أليم.

﴿سَخِطُونَ بِاللَّهِ لَكُم لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾

أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾

يخلف أولئك المنافقون بالله تعالى العظيم لكم أيها المؤمنون كذباً، بباعث الخوف منكم ليرضوكم، بأنهم ما قالوا شيئاً يؤذي الله تعالى ويؤذي رسوله ﷺ ويؤذي المؤمنين. والله تعالى أحق أن يرضوه بالاستغفار، ورسوله ﷺ بالتوبة إلى الله تعالى والاعتذار إن كانوا مؤمنين حقاً، تائبين صدقاً.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنِ مُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ

جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١٣﴾

ألم يعلم أولئك المنافقون أنه من يشاقق الله تعالى ويحاربه ويخالفه^(١) ويشاقق الرسول ﷺ ويحاربه ويخالفه فإن له نار جهنم خالداً فيها، وذلك الخزي العظيم والعذاب المهين.

﴿سَخَذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ

تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجُ مَا

تَخَذَرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ

وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾ لَا

(١) انظر تفسير ابن كثير ١١٠/٤

تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ^ع إِنْ نَعَفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ

نُعَذِّبُ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١﴾

يُحذِرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا يَخْفُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ كُفْرٍ وَبُغْضٍ لِلْإِسْلَامِ وَاسْتِهْزَاءٍ بِالْمُصْطَفَى ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ. قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّوْبِيخِ: اسْتَهْزِئُوا كَمَا يَحِلُّ لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَخْرُجٌ مَا تَحْذَرُونَ إِخْرَاجَهُ، وَفَاضِحٌ مَا تَرِيدُونَهُ أَنْ يَكُونَ طَيِّبًا الْكُتْمَانَ. وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ وَالنَّبِيُّ الْعَظِيمُ عَمَّا قَالُوا مِنْ سُوءٍ لِيَقُولَنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ فِي أَوْدِيَةِ الْكَلَامِ وَنَلْعَبُ وَلَا نُرِيدُ جِدًّا الْقَوْلَ. قُلْ يَا مُحَمَّدُ أَبَا اللَّهِ تَعَالَى وَبآيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ، وَبِرَسُولِهِ ﷺ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ وَتَضْحَكُونَ! لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ إِيمَانِكُمْ. إِنْ يَعْفُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يَعَذِّبُ طَائِفَةً أُخْرَى بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ.

﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ

يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ

وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ^ع نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ^ط إِنَّ

الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٢﴾

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَتَشَاجَهُونَ فِي الدِّينِ كَأَبْعَاضِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ^(١) وَأَجْزَائِهِ. يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ شَرْعًا وَعَقْلًا، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ شَرْعًا وَعَقْلًا، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي كُلِّ وَجْهِ الْبَرِّ، وَعَنْ كُلِّ مَا فِيهِ مَصْلَحَةُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ. تَرَكُوا اللَّهَ أَنْ يَطِيعُوهُ وَيَتَّبِعُوا

(١) الجلالين.

أمره فتركهم الله من توفيقه وهدايته ورحمته^(٢) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الْخَارِجُونَ
عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
مُؤَلَّمٌ ﴾

وعد الله تعالى المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها أبداً،
هي كافيتهم عذاباً وعقاباً على كفرهم^(١) ولعنهم الله تعالى ، وطردهم من رحمته،
ولهم عذاب دائم مقيم.

﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ
أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا
اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا
أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ ﴾

أنتم أيها المنافقون كالذين من قبلكم^(٢) الذين أهلكهم الله تعالى. كانوا
أشد منكم قوّة وأكثر أموالاً وأولاداً فتمتعوا بنصيبهم وحظهم من دنياهم
ودينهم ورضوا بذلك من نصيبهم في الدنيا عوضاً من نصيبهم في الآخرة^(٣)

(٢) تفسير الطبري ١٠/١٢١.

(١) انظر تفسير الطبري ١٠/١٢١.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٣٣٠ و ٣٣١.

(٣) تفسير الطبري ١٠/١٢١.

فاستمتعتم بنصيبيكم كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبيهم، وخضتم في لغو القول كالذي خاضوا. أولئك المنافقون حبطت أعمالهم وبطلت في الدنيا والآخرة على غرار الكافرين السابقين، وأولئك هم الخاسرون في الأولى والآخرة^(٤).

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

في أسلوب الاستفهام الإنكاريّ تسأل الآية الكريمة ألم يأت أولئك المنافقين كي يتّعظوا نبأ الذين من قبلهم قوم نوح عليه السلام أول رسل الله تعالى إلى البشر والأب الثاني للبشريّة وعاد قوم هود عليه السلام وكانوا يسكنون في جنوب الجزيرة العربيّة، وثمرود قوم صالح عليه السلام وكانوا يسكنون الحِجْر أو ديار ثمود في شمال الجزيرة العربيّة، وقوم إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء، وأصحاب مدين. ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز^(١) وهم قوم شعيب عليه السلام. والقرى المؤتفكات المنقلبات رأساً على عقب^(٢) وهم قوم لوط عليه السلام قيل إنّها كانت قريّات ثلاثاً^(٣) وأمّ قراهم سدوم^(٤) جنوب البحر الميت^(٥) أتتهم جميعاً

(٤) انظر تفسير الطبري ١٠/١٢٢.

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٤٣.

(٢) تفسير الطبري ١٠/١٢٢.

(٣) تفسير الطبري ١٠/١٢٣.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/١١٤ و ٣/٤٤١.

رسلهم بالآيات البينات فكفروا فأخذهم الله تعالى. وما كان الله تعالى ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بكفرهم.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ
سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ
ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٧﴾

والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض وأصفياء بعض. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقومون الصلاة بكامل شروطها، ويؤتون الزكاة أصحابها، ويطيعون الله تعالى ويطيعون رسوله ﷺ طاعةً مطلقة. أولئك سيرحمهم الله تعالى في الأولى والآخرة. إن الله تعالى عزيزٌ في ملكه حكيمٌ في صنعه. وعد الله تعالى المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومسكن طيبةً في جناتٍ عدنٍ وخلود. ورضوانٌ من الله تعالى أكبر من كل نعيم. ذلك هو الفوز العظيم حقًا.

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ ۗ وَبئسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٨﴾

(٥) انظر معجم البلدان : " سدوم" وتفسير الطبري ٤٧/٢٧.

يا أيها النبي الكريم والرسول العظيم جاهد الكفار باللسان والمنافقين باللسان^(١) واغلظ عليهم وكن فظاً معهم. ومأواهم جهنم، وبئس المصير والقرار النار.

﴿تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ

الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولُو مَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا

نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ

خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٦﴾

يحلِف المنافقون بالله العظيم بأنهم ما قالوا كلمة الكفر التي سمعها منهم بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وأوصلها للنبي ﷺ الذي دعاهم وسألهم فأنكروا وحلّفوا أنّهم ما قالوها. والله تعالى يقسم^(١) بأنهم قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم. ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تنصّ على إسلام القوم الذي يكون باللسان ويقف عنده ولا يتعدّاه. وهذه هي حقيقة المنافقين. ولقد هم أولئك المنافقون بما لم ينالوا بفضل الله تعالى وذلك بقتل النبي ﷺ ليلة العقبة وذلك بإلقائه عليه الصلّاة والسّلام وهو على ناقته من أعلى الثنية وأعلى الجبل ليلاً^(٢) وما نقموا وما أنكروا على رسول الله ﷺ شيئاً إلا أنّ أغناهم الله ورسوله من فضله^(٣) فإن يتب المنافقون يك خيراً لهم وإن يستمروا في تولّيهم وإعراضهم

(١) انظر - هنا - تفسير الطبري ١٠/١٢٦.

(١) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٣٣٨.

(٢) انظر أسباب النزول ٢٨٩.

(٣) تفسير الطبري ١٠/١٢٩.

يعدّهم الله تعالى عذاباً أليماً في الدنيا بالخزي، والآخرة بنار جهنم. وما لهم في الأرض من وليّ يتولى شئوهم ولا نصير ينصرهم على عدوهم.

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنِ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ

لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي

قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا

كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ

وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

ومن هؤلاء المنافقين من عاهد الله تعالى لئن آتانا عزر وجل من فضله لنصدّقنّ ولنكوننّ من الصّالحين. فلما آتاهم عزر وجل من فضله بخلوا بذلك الفضل الذي أعطاهم الله تعالى إيّاه وتولّوا وانصرفوا وهم معرضون عن طاعة الله تعالى مستكبرون. فصيرّ الله تعالى عاقبتهم^(١) نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه عزر وجل بسبب أنّهم أخلفوا الله تعالى ما وعده بإيتاء الزكاة مستحقّيتها وبسبب أنّهم كانوا يكذبون في أقوالهم ووعودهم. ألم يعلم أولئك المنافقون أنّ الله تعالى يعلم سرّهم ونجواهم مع الآخرين وأنّ الله تعالى علّام الغيوب ومن ذلك دخائل القلوب ودفائن النفوس.

(١) الجلالين .

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنْ
 الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ
 فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

أولئك المنافقون هم الذين يلمزون^(٢) ويعيبون^(٣) المطَّوعين من المؤمنين
 في الصدقات المطَّوعين^(٤) المتنقلين^(٥) والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون
 منهم فيجازيهم عزّ وجلّ على سخريتهم فيحبط أعمالهم، ويشيب المتصدّقين،
 وللمنافقين عذابٌ أليم. لقد كان المنافقون يقولون عمّن أنفق كثيراً في تبوك وغير
 تبوك هذا مُراءٍ، ويقولون عمّن أنفق قليلاً إنّ الله لغنيّ عن صدقة هذا^(١) فما
 سلم من لسان المنافقين أحد.

﴿ أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
 سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
 وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

هذا كلامٌ خرج مخرج الأمر وتأويله الخبر، ومعناه إن استغفرت لهم يا
 محمّد أو لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم^(٢) حتى ولو استغفر لهم المصطفى ﷺ
 سبعين مرّة. وقد يراد بالرقم سبعين حقيقة معناه، وقد يراد به الدلالة على
 الكثرة في مرتبة العشرات، جرياً على عادة العرب الذين نزل القرآن الكريم

(٢) انظر الجدول في إعراب القرآن وصفه ٣٤٤/٥.

(٣) الجلالين.

(٤) انظر الجدول في إعراب القرآن وصفه ٣٤٥/٥.

(٥) الجلالين.

(١) انظر فتح الباري ٣٣٠/٨ حديث رقم ٤٦٦٨.

(٢) تفسير الطبري ١٠/١٣٧.

بلسانهم. والسبب في عدم قبول الاستغفار لهم أنهم كفروا بالله تعالى، وبرسوله ﷺ. والله تعالى لا يهدي المصيرين على فسقهم والخروج عن الطريق المستقيم.

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلْفَ رَسُولِ

اللَّهِ وَكَرَهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا

لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ

﴿ ٨١ ﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

﴿ ٨٢ ﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَعِذْ نُوكَ لِلْخُرُوجِ

فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ

رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوْلَ مَرَّةٍ فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَلِيفِينَ ﴿ ٨٣ ﴾ وَلَا تُصَلِّ

عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ۗ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ

وَرَسُولِهِ ۖ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿ ٨٤ ﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ

وَأَوْلَادُهُمْ ۗ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ

أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿ ٨٥ ﴾

فرح الذين خلفهم الله عن الغزو مع رسوله والمؤمنين به وجهاد أعدائه^(١)

بمقعدهم وجلووسهم في منازلهم^(٢) بعد^(٣) رسول الله ﷺ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم

(١) تفسير الطبري ١٣٩/١٠.

(٢) تفسير الطبري ١٣٩/١٠.

(٣) الجلالين وانظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٤٧/٥.

وأنفسهم في سبيل الله تعالى وقال بعضهم لبعض^(٤) لا تنفروا في الحرّ. قل لهم يا محمد نار جهنم أشدّ حرّاً من الحرّ الشّدِيد في غزوة تبوك، وسوف تدخلون النار وبئس القرار. إنّ المنافقين لو كانوا يفقهون ويعقلون ما غابت عنهم تلك الحقيقة. فليضحك المنافقون قليلاً في هذه الحياة الدّنيا، وليبْكُوا كثيراً في جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون في هذه الحياة الدّنيا من آثام. فإن رجعت الله تعالى وردك يا محمد من غزوتك هذه^(٥) إلى طائفةٍ من هؤلاء المنافقين فاستأذنوك للخروج من أجل القتال معك فقل لهم يا محمد لن تخرجوا معي أبداً، ولن تقاتلوا معي عدواً. إنكم رضيتم بالعودة أول مرة فلم تخرجوا إلى غزوة تبوك فاقعدوا مع الرّجال الذين تخلفوا عن الغزاة^(١).

ولا تصلّ يا محمد على أحدٍ منهم مات أبداً، ولا تقم على قبره. إنهم كفروا بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ، وماتوا وهم فاسقون خارجون عن الصّراط المستقيم. عن عثمان رضي الله عنه قال: كان النّبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرّجل وقف عليه وقال: استغفروا لأخيكم واسألوا له التّثبيت فإنّه الآن يُسأل^(٢).

ولا تعجبك يا محمد أموالهم وأولادهم. إنّما يريد الله تعالى أن يعدّهم بها في الدّنيا بما يلقون في جمعها من المتاعب وفي الحياة الدّنيا من المصائب، وتخرج أرواحهم الخبيثة وهم كافرون.

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ

أَسْتَعِذَّكَ أَوْ لُوا الطُّولَ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير الطّبري ١٠/١٤٠.

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٣٢ وتفسير الطّبري ١٠/١٤٠ والجلالين.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/١٣٥.

﴿ ٨٦ ﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَفْقَهُونَ ﴿ ٨٧ ﴾

وإذا أنزل الله تعالى سورةً كريمةً على محمد ﷺ بأن آمنوا بالله تعالى، وجاهدوا مع رسوله ﷺ استأذنتك ذوو الغني والمال منهم في التخلّف عنك والعودة في أهليهم^(٣) وقالوا لك دعنا^(٤) نكن مع القاعد من الجهاد من ذوي الأعدار وغير ذوي الأعدار.

لقد رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ النَّسَاءِ اللَّاتِي تَخَلَّفْنَ فِي الْبُيُوتِ^(١) وطبع الله تعالى على قلوبهم فهم لا يفقهون ما يقال ويجهلون مصلحتهم.

﴿ لَكِنَّ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

﴿ ٨٨ ﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ ٨٩ ﴾

إنّ أولئك المنافقين لم يجاهدوا في سبيل الله تعالى، لكن الرسول محمد ﷺ والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى. وأولئك هم الخيرات في الأولى بالنصر والغنيمة والتّمكين في الأرض، وفي الآخرة بالخلود في جنّات النّعيم. إنّ الله سبحانه وتعالى أعدّ لهم جنّات تجري من تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها أبداً. ذلك هو الفوز العظيم حقاً، والنّجاح الكبير صدقاً.

(٣) انظر تفسير الطّبري ١٠/١٤٣.

(٤) تفسير الطّبري ١٠/١٤٣.

(١) الجلالين.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ
الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ﴾

وجاء رسول الله ﷺ المعتذرون من الأعراب بمعنى المعتذرين^(١) وأصله
المعتذرون. فقبلت التاء ذالاً وأدغمت^(٢) ليؤذن لهم في التخلف^(٣) ومما هو دليلٌ
على صدق هؤلاء المعتذرين المعتذرين من الأعراب مجئ جملة: "جاء" التي
تستعمل في القرآن الكريم دائماً وأبداً دليلاً على القرب، وذلك بعكس
جملة: "أتى" صنوها التي تدلّ دائماً وأبداً على البعد. إن هؤلاء الأعراب الصادقي
الأعداء قد جاءوا رسول الله ﷺ ووصلوا إليه فعلاً كي يبينوا أعذارهم له عليه
الصلاة والسلام.

وفي المقابل قعد الذين كذبوا الله تعالى وكذبوا رسوله ﷺ. سيصيب الذين
كفروا منهم ولا يخطئهم عذابٌ من الله تعالى أليمٌ وعظيم.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا
عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَلَا عَلَى
الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ

(١) الجلالين.

(٢) انظر تفسير ابن عطية ٦/٥٩٥ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٣٥٨.

(٣) تفسير الطبري ١٠/١٤٤.

تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا

يُنْفِقُونَ ﴿١٣﴾

ليس على الضّعفاء حرجٌ ولا إثمٌ^(٤) ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون إذا نصحوا لله تعالى ولرسوله ﷺ وكانوا صادقي الإيمان والنية. ويلاحظ ترتيب الآية الكريمة الفئات الثلاث بناءً على مدى لزوم العذر. ما على الذين بلغوا مرتبة الإحسان من سبيل عليهم ولا لوم لهم. والله تعالى غفورٌ ذنب من استغفره رحيمٌ في كلِّ حال.

وكذلك لا إثم على الذين أتوك من أماكن بعيدة يا محمد لتحملهم إلى جبهة القتال وقلت لهم يا محمد لا أجد ما أحملكم عليه من الدوابّ تولّوا ورجعوا وأعينهم تفيض من الدمع بعد أن امتلأت به حزنًا لأجل^(١) ألا يجدوا ما ينفقون من مالٍ للجهاد في سبيل الله تعالى.

عن أنسٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في غزاةٍ فقال: إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه، حبسهم العذر^(٢)

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا

تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَحْبَارِكُمْ

(٤) الجلالين.

(١) الجلالين وانظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥/٣٦١.

(٢) فتح الباري ٦/٤٦ حديث رقم ٢٨٣٩.

وَسَيَّرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ
 وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ
 لَكُمْ إِذَا أَنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ ط فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ط إِنَّهُمْ
 رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾
 سَيَحْلِفُونَ لَكُمْ لِنُرَضُوا عَنْهُمْ ط فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا
 يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾

إِنَّمَا السَّبِيلُ وَالْمُواخِذَةُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ
 الْجِهَادِ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ وَقَادِرُونَ عَلَيْهِ. إِنَّهُمْ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ النِّسَاءِ الْمُتَخَلِّفَاتِ
 عَنِ الْجِهَادِ بِطَبْعِهِنَّ، وَطَبَعَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَا يَنْفَعُهُمْ
 وَمَا يَضُرُّهُمْ.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِأَقْبَحِ الْأَعْذَارِ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْجِهَادِ. قُلْ
 لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ وَقُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُوْمِنَ لَكُمْ وَلَنْ نَصَدِّقَكُمْ عَلَى
 مَا تَقُولُونَ^(١) قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنْ أَخْبَارِكُمْ، وَأَظْهَرَ كُمْ لَنَا عَلَى حَقِيقَتِكُمْ، وَسَيَّرَى اللَّهُ
 تَعَالَىٰ عَمَلَكُمْ وَرَسُولَهُ ﷺ. ثُمَّ تَرُدُّونَ بَعْدَ مَوْتِكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ
 وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَسَيَجَازِيكُمْ.

سَيَحْلِفُ أَوْلَاكَ الْمُنَافِقُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى الْعَظِيمِ لَكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ
 لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ وَتَتْرَكُوهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ، وَدَعُوا تَأْنِيْبَهُمْ^(٢) إِنَّهُمْ قَدَّرُ حُبِّثِ
 بَاطِنُهُمْ^(٣) وَنَجَسٌ^(٤) وَنَتْنٌ^(٥) وَمَصِيرُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنْ آثَامٍ.

(١) تفسير الطبري ٢/١١.

(٢) تفسير الطبري ٣/١١.

(٣) الجلالين.

يخلفون لكم وهم كاذبون لترضوا عنهم. فإن ترضوا عنهم فإن الله تعالى لا يرضى عن القوم الفاسقين الخارجين عن الصراط المستقيم.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ

مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَابِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ

السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ

الرُّسُولِ ۗ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ۖ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾﴾

من الأعراب، وهم سكان البادية^(١) كافرون ومنافقون ومؤمنون. وقد تحدّث عن كلّ فريق آية كريمة.

الأعراب سكان البادية والموغلون في البداوة والمنزلون عن الناس أشدّ كُفراً ونفاقاً من غيرهم، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله تعالى على رسوله محمد ﷺ من قرآنٍ مجيدٍ وسنةٍ مطهرة. والله تعالى عليم لا يخفى عليه شيء، حكيم في كلّ قولٍ وفعلٍ وحكم، وفي كلّ شيءٍ لا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/١٤٠ وتفسير الطبري ١١/٣.

(٥) مفردات الرّاعب الأصفهاني: "رجس" ١/٢٥٠.

(١) مفردات الرّاعب الأصفهاني: "عرب" ٢/٤٢٦.

ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق غرامةً وخسارةً^(٢) ويتربص بالمؤمنين الدوائر، وينتظر بكم الدوائر أن تدور بها الأيام والليالي إلى مكروهه، ونفي محبوب، وغلبة عدوِّ لكم^(٣) جعل الله دائرة السوء عليهم، ونزول المكروه بهم لا عليكم أيها المؤمنون ولا بكم^(٤) وجعل عليهم الدائرة التي تسوؤهم سوءاً^(١) والله سميعٌ لكل قول، عليمٌ بكل نيةٍ وفعل. ولا يخفى أن هذه صفات المنافقين من الأعراب.

ومن الأعراب من يؤمن بالله تعالى، وباليوم الآخر، ويتخذ ما ينفق قرباتٍ عند الله تعالى، وما يقربه من رضا الله ومحبتة^(٢) وما يمكنه من نيل دعاء الرسول واستغفاره له^(٣) إلا إن تلك التفقات في سبيل الله تعالى قريبة لهم عند الله تعالى ورفيع منزلة. سيدخلهم الله تعالى في رحمته. إن الله تعالى غفورٌ ذنب من استغفره، رحيمٌ وسعت رحمته كل شيءٍ وحي.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ

وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ

لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ ﴿١١﴾

والسابقون الأولون من المهاجرين إلى المدينة المنورة، والأنصار الذين نصرروا الله تعالى، ونصروا رسوله ﷺ، ورحبوا بإخوانهم المهاجرين، والذين تبعوهم بإحسانٍ إلى يوم الدين فهاجروا من ديار الكفر إلى ديار الإسلام، ونصروا الله

(٢) تفسير ابن كثير ٤/١٤١.

(٣) تفسير الطبري ٤/١١.

(٤) تفسير الطبري ٤/١١.

(١) تفسير الطبري ٥/١١.

(٢) تفسير الطبري ٥/١١.

(٣) تفسير الطبري ٥/١١.

تعالى ورسوله ﷺ ودين الإسلام والمؤمنين، كل هؤلاء رضي الله تعالى عنهم، ورضوا عنه وعن ثوابه الجزيل لهم، وإكرامه لهم، وأعد لهم جنات تجري تحت شجرها وقصورها أنواع الأنهار، خالدين في تلك الجنات أبداً. ذلك الفوز العظيم حقاً، النجاح الكبير صدقاً.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ
الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ^ط نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ^ج سَنُعَذِّبُهُمْ
مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾﴾

وممن حولكم يا أهل مدينة رسول الله ﷺ منافقون. ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق، ولجوا فيه واستمروا^(١) مرئوا عليه ودرئوا به^(٢) لا تعلمهم أيها الرسول الكريم والنبي العظيم. نحن نعلمهم دون سوانا. سنعذبهم مرتين، في الدنيا بالفضيحة والخزي^(٣) وبعذاب القبر^(٤) ثم يردون يوم القيامة إلى عذاب عظيم أليم شديد.

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ
سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ^ج إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ خذ
مِنَ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ^ط إِنَّ
صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ^ط وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطبري ١١/٨.

(٣) انظر -مثلاً- تفسير ابن كثير ٤/١٤٣ و١٤٤ و١٤٤٤ وتفسير الطبري ١١/٨ و٩.

(٤) انظر -مثلاً- تفسير ابن كثير ٤/١٤٣ و١٤٤ و١٤٤٤ وتفسير الطبري ١١/٨ و٩.

يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ
 التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿١٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
 وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُتُرْدُونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ
 بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

ومن أهل المدينة آخرون أقرّوا بذنوبهم^(١) خلطوا عملاً صالحاً باعترافهم
 بذنوبهم وتوبتهم منها^(٢) وعملاً آخر سيئاً بتخلفهم عن رسول الله ﷺ حين خرج
 غازياً وتركهم الجهاد مع المسلمين^(٣) في غزوة تبوك^(٤) لعلّ الله أن يتوب
 عليهم. وعسى من الله واجب. وإنما معناه سيتوب الله عليهم^(٥) إن الله تعالى غفورٌ
 رحيم.

خذ أيها الرسول الكريم والنبي العظيم من أموالهم صدقةً تطهّرهم من
 دنس ذنوبهم^(٦) وتزكّيهم بها، وتنمّيهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل النفاق بها
 إلى منازل أهل الإخلاص^(٧) وصلّ عليهم، وادع لهم بالمغفرة لذنوبهم، واستغفر لهم

(١) تفسير الطبري ١٠/١١.

(٢) تفسير الطبري ١٠/١١.

(٣) تفسير الطبري ١٠/١١.

(٤) تفسير الطبري ١٠/١١.

(٥) تفسير الطبري ١٠/١١.

(٦) تفسير الطبري ١٣/١١.

(٧) تفسير الطبري ١٣/١١.

منها^(٨) إِنَّ دَعَاءَكَ وَاسْتِغْفَارَكَ طَمَئِينَةٌ لَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ عَفَا عَنْهُمْ وَقَبِلَ تَوْبَتَهُمْ^(٩) وَاللَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ لِكُلِّ قَوْلٍ، عَلِيمٌ بِكُلِّ نِيَّةٍ وَفَعَلٍ.

وفي أسلوب الاستفهام التقريري يأتي السؤال: ألم يعلم هؤلاء الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً أن الله تعالى هو يقبل التوبة عن عباده التائبين، ويأخذ الصدقات وينميها ويثيب عليها، وأن الله تعالى هو التواب على عباده، يرشدهم إلى التوبة ويقبلها منهم، الرحيم الذي وسعت رحمته كل حي وشيء. وقل يا محمد للناس أجمعين، وفيهم المتخلفون عن غزوة تبوك، اعملوا ماشئتم، فسيرى الله تعالى عملكم ويراه رسوله ﷺ ويراه المؤمنون. وستردون بعد الموت إلى الله تعالى عالم الغيب والشهادة، والذي أحاط بكل شيء علماً، فينبئكم بما كنتم تعملون وسيجازيكم.

﴿وَأَخْرُونَ مُرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

ومن هؤلاء المتخلفين عنكم حين شخصتم لعدوكم أيها المؤمنون آخرون^(١) مرجئون لأمر الله وقضائه^(٢) ومؤخرون عن التوبة^(٣) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي عن التوبة. وهم مُرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية. قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد، كَسَلًا وَمَيلاً إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار، لاشكاً

(٨) تفسير الطبري ١١/١٣.

(٩) تفسير الطبري ١١/١٣.

(١) تفسير الطبري ١١/١٦.

(٢) تفسير الطبري ١١/١٦.

(٣) الجلالين.

ونفاقاً^(٤) والله تعالى إذا شاء عذب هؤلاء، وإذا شاء قبل توبتهم. والله تعالى عليهم لا يخفى عليه شيء، حكيم في كل شيء.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ
 أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا
 لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ
 مُجْتَبُونَ أَنْ يَنْتَهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ
 بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى
 شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ
 تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

ومن هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا مسجداً مضارّةً لأهل مسجد
 قباء^(١) وكفراً بالله تعالى وبرسوله ﷺ، وتفريقاً بين المؤمنين الذين يصلّون بقباء
 بصلاة بعضهم في مسجدهم^(٢) وترقباً^(٣) وانتظاراً لمن حارب الله تعالى ورسوله من
 قبل، وهو أبو عامر الفاسق الكافر الذي أمرهم ببناء المسجد ليصلّي فيه فيما
 يزعم إذا رجع إليهم من عند هرقل وقيصر الروم بالجيوش لقتال

(٤) تفسير ابن كثير ٤/١٤٨.

(١) الجلالين.

(٢) الجلالين.

(٣) الجلالين.

النبي ﷺ^(٤) وليحلفن أولئك المنافقون بالله تعالى العظيم بأنهم ما^(٥) أرادوا ببناء مسجد الضّرار إلا الفعلة الحُسنى^(١) والله تعالى يشهد إنّ المنافقين لكاذبون في أقوالهم.

لا تُصَلِّ يا مُحَمَّد في مسجد الضّرار أبدا^(٢) لمسجد أُسِّس على التّقوى وُبُنيت قواعده عليها^(٣) وهو مسجد قباء كما في البخاري^(٤) من أوّل يوم حللت يا مُحَمَّد بدار الهجرة^(٥) أحقُّ أن تقوم فيه وتصلّي به. والسّياق إنّما هو في معرض مسجد قباء. ولهذا جاء في الحديث الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ قال: صلاةٌ في مسجد قباء كعمرة. وفي الصّحيح أنّ رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً. وفي الحديث أنّ رسول الله ﷺ لما بناه وأسّسه أوّل قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذي عيّن له جهة القبلة. فالله أعلم^(٦).

في مسجد قباء رجالٌ من الأنصار يحبّون أن يتطهّروا والله يحب المتطهّرين. روي أنّ رسول الله ﷺ بعث إلى عويم بن ساعدة فقال: ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم؟ فقال: يا رسول الله، ما خرج منّا رجلاً ولا امرأةً من الغائط إلا غسل فرجه - أو قال: مقعدته - فقال النبي ﷺ: هو هذا^(٧).

(٤) انظر تفسير الطّبري ١٨/١١.

(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢٤/٦.

(١) انظر تفسير الطّبري ١٨/١١.

(٢) الجلالين وتفسير ابن كثير ١٥٠/٤.

(٣) الجلالين.

(٤) الجلالين وتفسير ابن كثير ١٥٠/٤.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير ابن كثير ١٥٠/٤.

(٧) تفسير ابن كثير ١٥١/٤.

وفي أسلوب الاستفهام التّقريريّ يتمّ السّؤال: أفمن أسّس بنيانه على تقوى من الله تعالى ورضوانٍ خيرٌ أم من أسّس بنيانه على حرف^(٨) جرف هارٍ وحفيرة^(١) وطرفٍ مشرفٍ على السّقوط^(٢) فأنهار به في نار جهنّم. والله تعالى لا يهدي القوم الظّالمين.

لا يزال بيان المنافقين الذي بنوا في هيئة مسجد الضّرار ريبةً وشكاً ونفاقاً^(٣) في قلوبهم إلا أن تتقطّع قلوبهم وتتصدّع فيموتوا^(٤) ووقتها يمضي المنافقون بربهم وشكهم ونفاقهم إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً قبل فوات الأوان. والله تعالى عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، حكيمٌ في كلّ شيء.

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِّبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَبْدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ

(٨) تفسير الطّبري ٢٤/١١.

(١) تفسير ابن كثير ١٥٤/٤.

(٢) انظر الجلالين.

(٣) تفسير الطّبري ٢٥/١١.

(٤) تفسير الطّبري ٢٥/١١.

الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اشْتَرَى وَابْتَاعَ^(١) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ الَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ. وَعَدَاً عَلَى اللَّهِ تَعَالَى حَقًّا فِي التَّوْرَةِ الَّتِي أَوْحَاهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْإِنْجِيلِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. وَلَا أَحَدٌ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. فَاسْتَبَشِرُوا أَيُّهَا الْمَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى بِبَيْعِكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ بِالَّذِي بَعْتُمُوهَا مِنْ رَبِّكُمْ بِهِ^(٢) وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

وهذه هي صفات هؤلاء المؤمنين المجاهدين في سبيل الله تعالى. إنهم التائبون توبةً نصوحاً من الذنوب التي قد يرتكبون، العابدون الله تعالى حقَّ العبادة، الحامدون الله تعالى في السراء والضراء، الصائمون، الراكعون الساجدون في صلاتهم، الآمرون بالمعروف شرعاً وعقلاً، الناهون عن المنكر شرعاً وعقلاً، والحافظون لحدود الله تعالى فلا يتجاوزونها بفعل ما حرم الله تعالى فعله، وكذلك لا يجرِّمون طيبات ما أحلَّ الله تعالى لهم، ولا يبتدعون في الدين. وَبَشِّرِ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَلَكَ صِفَاتِهِمْ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ.

(١) تفسير الطبري ٢٦/١١.

(٢) تفسير الطبري ٢٦/١١.

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ ١١٣ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ
إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ
إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي ۖ وَيُمِيتُ ۖ
وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

ما كان للنبي محمد ﷺ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا
أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، وذلك بارتكابهم الذنب
الذي لا يغفره الله تعالى وهو الشرك. ومما جاء في سبب النزول الحديث الذي
جاء في صحيح الإمام البخاري^(١) عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما
حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبي
أمية، فقال النبي ﷺ: أي عم. قل لا إله إلا الله، أحاج لك بها عند الله. فقال أبو
جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فقال النبي
ﷺ: لأستغفرنَّ ما لم أنه عنك. فنزلت الآية الكريمة.

وما كان استغفار إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء لأبيه آزر إلا عن
موعدة وعدّها إياه أشار إليها قوله تعالى^(٢): ﴿قال سلامٌ عليك سأستغفر لك

(١) فتح الباري ٨/٣٤١ حديث رقم ٤٦٧٥.

(٢) سورة مريم ٤٧.

رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿١﴾ وَقِيلَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ عَنْ مَوْعِدَةٍ مِنْ أَبِيهِ لَهُ فِي أَنَّهُ سَيُؤْمِنُ. فَكَانَ إِبْرَاهِيمَ قَدْ قَوِيَ طَمَعُهُ فِي إِيمَانِهِ فَحَمَلَهُ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ لَهُ حَتَّى نُهِى عَنْهُ ^(٣) فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ أَبَاهُ آزَرَ عَدُوًّا لِلَّهِ تَعَالَى بِسَبَبِ الشَّرْكَ تَبَرَّأَ مِنْهُ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَّاهٌ كَثِيرٌ التَّضَرَّعِ

وَالدَّعَاءِ ^(١) حَلِيمٌ صَبُورٌ عَلَى الْأَذَى ^(٢).

وَمَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ أَنْ هَدَاهُمْ وَوَقَّفَهُمْ لِاعْتِنَاقِ دِينِ الْإِسْلَامِ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ مِنْ عَمَلٍ غَيْرِ صَالِحٍ فَلَا يَجْتَنِبُونَ ذَلِكَ الْعَمَلَ غَيْرِ الصَّالِحِ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا وَمَنْ فِيهِمَا يُحْيِي مَنْ يَرِيدُ إِحْيَاءَهُ، وَيُمِيتُ مَنْ يَرِيدُ إِمَاتَتَهُ، بِيَدِهِ عِزٌّ وَجَلٌّ الْخَيْرِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَمَا لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ وَلِيٍّ يَتَوَلَّى مَصَالِحَكُمْ، وَلَا نَصِيرٌ يَنْصُرُكُمْ وَيَصْرِفُ الْأَذَى عَنْكُمْ.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ

الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ

فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

نَزَلَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ^(٣) وَتُبَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَدَامَ تَوَاتِبَهُ ^(٤) عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَعَلَى الْأَنْصَارِ

^(٣) تفسير ابن عطية ٦٢/٧.

^(١) الجلالين وانظر تفسير الطبري ٣٧/١١.

^(٢) الجلالين.

^(٣) تفسير الطبري ٣٩/١١ و٤٠.

أهل المدينة المنورة، الذين اتبعوا محمداً ﷺ في وقت العُسرة^(٥) وزمن الشدة، وساعة العسرة منهم من التفقة والظهر والزاد والماء^(٦) من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم من شدة الكرب، ومن بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق ويشك في دينه ويرتاب بالذي ناله من المشقة والشدة في سفره وغزوه^(١) ثم تاب عليهم عز وجل، ورفع درجاتهم. إنه عز وجل بهم شديد الرأفة والرحمة. روي أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما^(٢) وكان النفر يتناولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوهم^(٣)

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ

مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ

الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

وتاب الله تعالى على الثلاثة الذين خلفوا، أي أخروا حتى تاب الله عليهم^(٤) وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك السلمي الخزرجي^(٥) ومُرارة ابن

(٤) الجلالين.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير الطبري ٣٩/١١.

(١) تفسير الطبري ٣٩/١١.

(٢) تفسير الطبري ٤٠/١١.

(٣) تفسير الطبري ٤٠/١١.

(٤) فتح الباري ١٢٣/٨.

(٥) الأعلام ٢٢٨/٥ وفتح الباري ١١٨/٨.

الرَّبِيعِ الْعَمْرِيِّ، الْأَوْسِيِّ^(٦) وَهَلَالِ بْنِ أُمَيَّةِ الْوَاقِفِيِّ الْأَوْسِيِّ^(٧) وَهُمَا بَدْرِيَّانِ^(٨) وَهُؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ اعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ مَقْصَرُونَ، فَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ عَنِ التَّحَدُّثِ إِلَيْهِمْ. أَمَّا الْأَوْسِيَّانِ فَلَزَمَا بَيْتَيْهِمَا، وَكَانَا كَبِيرَيْنِ فِي السَّنِّ.

وَأَمَّا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ فَكَانَ رَجُلًا شَابًا، يَقْضِي وَقْتَهُ بَيْنَ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، يَصَلِّي فِيهِ وَيَحْضُرُ دُرُوسَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا يَكَلِّمُهُ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدٌ. وَبَيْنَ الطَّوَافِ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَكَلِّمُهُ هُنَاكَ أَحَدٌ. فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ ابْتَنَى خَيْمَةً فِي جَبَلِ سَلْعٍ إِلَى الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمَنْوُورَةِ اعْتَزَلَ النَّاسُ فِيهَا. وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ وَهُوَ يَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ إِذْ سَمِعَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْبَاطِ يَسْأَلُ عَنْهُ. فَأَشَارَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَإِذَا بِهِ يُعْطِيهِ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانٍ يَحْرُضُهُ فِيهِ عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ وَهَجْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِسَبَبِ الْحَالِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَيَعِدُّهُ بِإِكْرَامِهِ لَوْ قَدِمَ عَلَيْهِ. مَا كَانَ مِنْ كَعْبٍ إِلَّا أَنْ أَلْقَى ذَلِكَ الْكِتَابَ فِي النَّارِ، وَأَدْرَكَ أَنَّ هَذَا نَوْعٌ جَدِيدٌ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِخْتِبَارِ. مَكَثَ كَعْبٌ وَزَمِيلَاهُ عَلَى هَذَا الْحَالِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَمْرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنْ يَهْجُرُوا زَوْجَاتَهُمْ دُونَ طَلَاقٍ. وَبَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ تَمَّامَ الْخَمْسِينَ يَوْمًا تَابَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَوْبَتَهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ حِينَ بَقِيَ الثَّلَاثُ الْأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ أُمِّ سَلْمَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا^(١) يَقُولُ كَعْبٌ ﷺ^(٢): "وَكَانَتْ أُمُّ سَلْمَةَ مُحْسِنَةً فِي شَأْنِي، مَعْتَنِيَّةً بِأَمْرِي، فَقَالَ: يَا أُمَّ سَلْمَةَ تَيْبِ عَلَى كَعْبٍ. قَالَتْ: أَفَلَا أُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأَبْشُرُهُ؟ قَالَ: إِذَا

(٦) فتح الباري ١١٩/٨.

(٧) فتح الباري ١٢٠/٨.

(٨) فتح الباري ١١٤/٨ حديث رقم ٤٤١٨.

(١) فتح الباري ١٢١/٨.

(٢) فتح الباري ١٢١/٨.

يخطئكم الناس فيمنعوكم التَّوم سائر اللَّيلة. حتَّى إذا صَلَّى الفجر آذن بتوبة الله علينا"

انطلق المسلمون بعد صلاة الفجر يبشرون الثلاثة بتوبة الله تعالى عليهم. وأعطى كعب من بشره ثوبه الذي لا يملك غيره. واستعار ثوباً، وانطلق إلى النَّبي ﷺ في المسجد النَّبويِّ الشَّريف، وإلى الصَّحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وقد بلغ من شدَّة فرح كعبٍ أَنه أراد أَن يتصدَّق بكلِّ ماله، فأمره النَّبيُّ ﷺ أَن يبقى منه لنفسه شيئاً، فأبقى سهمه الذي بخير.

لقد صوِّر كعبٌ ﷺ ما جرى له خير تصوير في الحديث الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه^(١).

لقد ضاقت على الثلاثة الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وأيقنوا^(٢) أَنَّهُ^(٣) لا ملجأ لهم من الله تعالى إلا إليه عزَّ وجلَّ. ثمَّ تاب الله تعالى عليهم فأرشدهم إلى التَّوبة ليتوبوا، وقبِلَ جلَّ وعلا توبتهم. إِنَّ الله تعالى هو الكثير القبول توبة عباده، الشديد الرَّحمة بهم.

ولمَّا كانت توبة الله تعالى على هؤلاء الثلاثة بسبب تقواهم وصدقهم فإنَّ الحقَّ جلَّ وعلا يأمر الَّذِينَ آمَنوا بأن يتَّقوا الله تعالى أمام النَّبيِّ ﷺ.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ

(١) فتح الباري ١١٣/٨ حديث رقم ٤٤١٨.

(٢) الجلالين.

(٣) الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٤٠/٦.

اللَّهُ وَلَا يَطُئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ
 عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ
 أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً
 وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ * وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً
 فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا
 قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٤﴾

ما كان لأهل المدينة المنورة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن
 رسول الله ﷺ في غزوة من الغزوات، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، بان يصونها
 عما رضىه لنفسه من الشدائد، وهو نهي بلفظ الخبر^(١) ذلك من أجل
 أنهم، وبسبب أنهم^(٢) لا يصيبهم عطش^(٣) ولا نصب وتعب^(٤) ولا مخمصة وجوع^(٥) في
 سبيل الله تعالى، ولا يطؤون أرضاً يغيب الكفار وطوهم إياها^(٦) ولا ينالون من عدو
 نيلاً، ولا يصيبون من عدو الله وعدوهم شيئاً في أموالهم وأنفسهم وأولادهم^(٧) إلا
 كتبت لهم في صحائف أعمالهم عمل صالح يشبههم الله تعالى عليه. إن الله تعالى لا
 يضيع أجر المحسنين، الذين أحسنوا العمل وبلغوا مرتبة الإحسان.

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطبري ٤٧/١١.

(٣) تفسير الطبري ٤٧/١١.

(٤) تفسير الطبري ٤٧/١١.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير الطبري ٤٧/١١.

(٧) تفسير الطبري ٤٧/١١.

ولا ينفقون في سبيل الله تعالى نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً، ولا يقطعون في طريقهم وادياً واحداً إلا كتب لهم عمل صالح، ليجزيهم الله تعالى أحسن ما كانوا يعملون.

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة الأولى ترتّب العناصر بحسب ترتيب تعرّض المجاهدين لها، ابتداءً بالعطش، وفي هذا التّرتيب تزداد المشقّات ويزداد الثّواب باستمرار.

كما يلاحظ أنّ الآية الكريمة الأخرى تتحدّث عن العناصر التي يشترك فيها المباشرون للقتال وغير المباشرين له.

وهاتان الآيتان الكريمتان نزلتا في الجيش يقوده النّبيّ ﷺ. إنّ النّبيّ ﷺ حينما يقود غزوةً على الجيش كلّهُ أن يخرج. أمّا إذا خرجت سرّيّة، فعلى الأخرى أن تبقى كي تتفقه في الدّين لتندر السّرّيّة التي خرجت وتعلّمها منازل بعدها من قرآن وما قيل من حديث^(١) والآية الكريمة الثالثة تتحدّث في السّرايا.

وما كان المؤمنون لينفروا في السّرايا جميعاً، فهلاً نفر من كلّ فرقة من غير الخارجين في السّرايا طائفةً وفئةً ليتفقهوا في الدّين بملازمة المصطفى ﷺ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلّهم يحذرون الوقوع فيما نهى الله تعالى، ونهى رسوله ﷺ عن الوقوع فيه.

قال الضّحّاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحلّ لأحدٍ من المسلمين أن يتخلّف عنه إلا أهل الأعدار. وكان إذا قام وأسرى السّرايا لم يحلّ لهم أن ينطلقوا إلاّ بإذنه^(٢).

(١) التفسير البسيط ١١/٨٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٠١ طبعة دار إحياء التّراث العربي، بيروت ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م وطبعة الشّعب ٤/١٧٣.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ
الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ويقربون منكم، وابدأوا
بقتال الأقرب فالأقرب إليكم داراً^(١) وليجدوا فيكم غلظةً وشدةً
عليهم^(٢) واعلموا أن الله تعالى مع المتقين بالتسديد والتأييد.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ
هَذِهِ ءِإِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ ءِإِيمَانًا وَهُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ
رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا
يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ
بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا
صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

(١) تفسير الطبري ٥٢/١١.

(٢) تفسير الطبري ٥٣/١١.

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَقُولُ عَلَى سَبِيلِ
الاستهزاء: أَيُّكُمْ زَادَتْ هَذِهِ السُّورَةُ إِيمَانًا. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِرَسُولِهِ ﷺ
فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَفْرَحُونَ بِهَا^(١).

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ النَّفَاقُ فَزَادَتْهُمْ شُكًّا ۖ إِلَىٰ شُكِّهِمْ وَرَبِّبًا إِلَىٰ
رَبِّهِمْ^(٢) وَكُفْرًا إِلَىٰ كُفْرِهِمْ^(٣) وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ.

أَوَّلًا يَرَىٰ أَوْلِيَاءَ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ يُبْتَئِلُونَ^(٤) وَيُخْتَبِرُونَ^(٥) فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ
مَرَّتَيْنِ، بِمَعْنَىٰ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يَخْتَبِرُهُمْ فِي بَعْضِ الْأَعْوَامِ مَرَّةً، وَفِي بَعْضِهَا
مَرَّتَيْنِ^(٦) بِالْقَحْطِ وَالشَّدَّةِ^(٧) وَبِالسَّنَةِ وَالْجُوعِ^(٨) ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَا هُمْ
يَتَّعِظُونَ^(٩).

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ كَرِيمَةٌ فِيهَا ذِكْرُهُمْ وَقَرَأَهَا النَّبِيُّ ﷺ^(١٠) نَظَرَ بَعْضُ
الْمُنَافِقِينَ إِلَىٰ بَعْضٍ وَسَأَلُوا بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ بِلِسَانِ الْمَقَالِ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ
انصرفوا. صرف الله تعالى قلوبهم بسبب أنهم قوم لا يفقهون، ومن أجل أنهم قوم
لا يفقهون عن مواعظه استكباراً ونفاقاً^(١١).

(١) الجلالين.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/١٧٦.

(٣) الجلالين.

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير الطبري ٥٤/١١ وتفسير ابن كثير ٤/١٧٦.

(٦) تفسير الطبري ٥٤/١١.

(٧) تفسير الطبري ٥٤/١١.

(٨) تفسير الطبري ٥٤/١١ وتفسير ابن كثير ٤/١٧٦.

(٩) الجلالين.

(١٠) الجلالين.

(١١) تفسير الطبري ٥٥/١١.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا
عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٨﴾ فَإِن
تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٧٩﴾﴾

لقد جاءكم أيها الناس ووصل إليكم فعلاً رسولٌ من أنفسكم ومن
جنسكم وليس من أيّ جنسٍ آخر كالملائكة مثلاً. وهذا الرسول الكريم والنبيّ
العظيم عزيزٌ عليه عنتمكم وهو دخول المشقّة عليكم والمكروه والأذى^(١) حريصٌ
عليكم بأن تدخلوا في دين الإسلام فينالكم الفضل العظيم والخير
العميم، وبالمؤمنين عظيم الرّأفة، شديد الرّحمة.

فإن أعرضوا عنك أيها الرسول الكريم والنبيّ العظيم فقل حَسْبِيَ اللَّهُ تعالى
وكافيّ، لا إله إلا هو، ولا معبود بحقّ سواه. عليه وَحْدَهُ دون سواه توكلت، وهو ربّ
العرش العظيم، والملك الكبير سبحانه.

لقد أوحى هذه المعاني بالقصيدة التّالية:

(١) تفسير الطّبري ٥٥/١١.